الأخلاقيات الطبية وأخلاقيات الحياة

محاضرة

بتاريخ ١٧ ذي الحجة ١٤٢٢ هـ الموافق ١ آذار ٢٠٠٢

سماحة آية الله العظمى

السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

214.61
F746a
C1

المركز الإسلامي الثقا...
مكتبة سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله العا...
الرقم 24996

الأخلاقيات الطبية وأخلاقيات الحياة

محاضرة

سماحة آية اللّه العظمى

السيد محمد حسين فضل اللّه

بتاريخ ١٧ ذي الحجة ١٤٢٢هـ

١ آذار ٢٠٠٢م

دار الملاك

للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

حارة حريك ـ قرب كلية الهندسة

هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ فاكس: ٠١/٤٥٠٧٦٩

مقدمة

«الأخلاقيّات الطبيّة وأخلاقيات الحياة» هو العنوان الذي أرادت إدارة الجامعة اليسوعية في بيروت أن تفتتح فيه «موسماً» ثقافيّاً صحيّاً في قاعة المحاضرات في كليّة العلوم الطبيّة بالجامعة.

وقد ارتأت إدارة الجامعة أن يتم الافتتاح من خلال هذا العنوان، ومن خلال شخصيّة دينيّة وعلميّة وسياسيّة وأدبيّة لها تأثيرها في مختلف الأوساط، وخاصة من خلال كونها مرجعية إسلامية تمثّل الموئل الفكري والشرعي للأجيال بما تمثّل من ثقل علمي وفقهي وبالنظر أيضاً إلى وقع كلمتها في المجتمعات والجامعات..

وعلى هذا الأساس قامت إدارة الجامعة بزيارة سماحة السيّد (دام ظلّه الشريف) برئاسة الأب سليم عبو وتقدمت بالطلب إلى سماحته ليعالج هذا العنوان بكل ما يحمله من إشارات علميّة وما يتضمنه من مضامين أخلاقيّة تحتضن

الجانب العلمي، ولا تبتعد فيه عن الخط الذي أراد اللّه له أن يحكم حركة الحياة..

وبالنظر إلى الصدى الذي تركته هذه المحاضرة في الأوساط الجامعية والإعلامية وبين جمهور المتابعين، وبعد إلحاح أكثر من جهة حول أهمية طباعتها لتعميم الفائدة خاصة لمن لم يتمكّن من متابعتها في القاعة التي لم تتسع لكل الوافدين لحضورها.. هذا بالإضافة إلى حاجة الطلبة إليها كمصدر من المصادر العلميّة والشرعية الذي يريدون الرجوع إليه في دراساتهم ومتابعاتهم إرتأى المركز الإسلامي الثقافي إعادة طباعة ونشر المحاضرة، وكلّنا ثقة أنها ستترك المزيد من الأصداء في الأرضية الشبابية وفي واقع المثقفين من مختلف الاتجاهات.

المكتب الإعلامي الخاص لسماحة السيّد (دام ظلّه الشريف)

٣ صفر ١٤٢٣ نيسان ٢٠٠٢م

نص المحاضرة

في معبدٍ من معابد العلم، لا بدّ لنا من أن نتجاوز كلَّ الاستهلاك الديني الذي أدمناه، وكل الضبابية الفكريّة الروحيّة التي عشناها، في كلّ هذا الارتجال الفكري الذي حاول في كثير من مواقع حياتنا أن يفرض نفسه، وخطورته أنه فرض نفسه على الدين وانطلق ليفترس السياسة.

اللّه في المفهوم الديني

في هذا اللقاء، لا بدّ لنا من أن نلتقي في حركة الكون ونحن نتحدّث عن الطبّ في إطار الدين، ولا بدّ أن نلتقي بهذا النوع من اللقاء بين الله وبين الإنسان، وذلك بأن لا نعيش الله في التجريد لنغرق في فلسفة الوجود، ولا نعيش الإنسان في المادة لنتحدّث عن اللحم والدم، فالله في المفهوم الرحب للأديان ولا سيما الإسلام والمسيحية يتحرّك معنا فهو رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، وهو محبة، وهو الذي يعلم السرّ وأخفى، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما

يوسوس به الإنسان في نفسه، هو في الداخل من العقل لا ليصادر هذا العقل وهو الذي خلقه، بل ليخطّط لهذا العقل خطوط الحرية عندما يريد أن ينفتح عليها. فقد أراد الله للعقل أن يكون حراً لأنّ العقل لا يمكن أن يبدع إلا من خلال الحرية. فأنت لا يمكنك أن تقنّن العقل وترسم له خطوطه ولكن يمكن لك أن تهيّئ له مناخاً من المسؤولية، حتى لا يضيع ولا ينطلق في المتاهات، بل يبقى للإنسان من أجل أن يخطّط ويرسم له معالم إنسانيته..

الإنسان في المفهوم الديني

وهكذا ـ أيها الأحبة حين نأتي إلى المفهوم الديني والإسلامي ـ على وجه الخصوص ـ للإنسان ـ، نجد أنّ الإنسان ليس قبضة من طين فحسب، بل هو قبضة من طين ونفخة من روح الله، يقول تعالى: ﴿**إني خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ (طه: ٧١ ـ ٧٢).

ونحن لا نتحدّث أنّ في الإنسان شيئاً من الألوهية ولكنْ فيه شيءٌ من روحها وروحانيّتها، وبذلك كان الإنسان العقل، وكان الإنسان الشعور والعاطفة التي تتعقلن كما هو العقل الذي يختزن شيئاً من العاطفة، فالإنسان وحدة متكاملة، ليس هناك مادّة منفصلة وروح منفصلة، أي ليست

هناك ازدواجية، فالمادة تتروحن، والروح تتحرّك في قلب المادة، ولذلك يبحث الإنسان في عمق ماديّته عن شيء يرتفع به عن المادة. فهو عندما يأكل يحاول أن يعطي للأكل شيئاً من معنى الروح، وعندما يريد أن يستمتع في كل متَعِه الحسيّة يحاول أن يتجاوز العنصر المادي إلى شيء من اللذة الروحية، بحيث يشعر أنَّه يمارس حسَّه بشيء من الصوفيّة الروحيّة، وهي قد لا تكون صوفيّة بالمعنى المصطلح، ولكنها صوفيّة بالمعنى الديني الذي يجعل الإنسان يستغرق في هذه الأجواء التي تمتزج فيها المادة والروح.

العلاقة بين الدين والطب

من خلال ذلك نفهم ـ أيها الأحبة ـ العلاقة بين الدين والطب، هذه العلاقة التي اهتمَّ بها علماء الإسلام عندما كانوا في إطارهم الثقافي يتحدّثون عنها بقولهم: العلم علمان: «علم الأديان وعلم الأبدان»، وكأنّهم يتحدّثون أنَّه لا بدّ أن نطلق العلم من أجل أن يحمي المادة في البدن، ومن أجل أن يحمي الروح في الإنسان، ومن هنا كانوا لا يتنكّرون للجانب الماديّ الذي يمثّل حماية الإنسان من كلّ ما يُسقط حياته، أو يضرّ بها، كما أنَّهم كانوا يدعون الإنسان أن يعيش روحه من خلال الدين.

الدين والطب في خدمة الإنسان

وعندما نَضَعُ مسألة الدين ومسألة الطب في الخط الإنساني، فإننا نلاحظ أنَّ الدين وُجِدَ لخدمة الإنسان، ولم يُخْلَق الإنسان لخدمة الدين، فلا يُراد للدين أن يتحوّل صنماً نخدمه، وإنما يُرَاد له أن يكون وعياً ننفتح عليه؛ بأن يجعلنا نصفو ونسمو ونرتفع لنتجاوز كلَّ هذه الحواجز التي تريد أن تُدخل عقلاً في زنزانة أو تُدخل قلباً في زنزانة، أو تطلق نشاطاً في ساحة تمتلئ بالحواجز..

لقد جاء الدين لخدمة الإنسان ولم يأتِ الإنسان لخدمة الدين وهذا ما نستوحيه من الآية الكريمة في كتاب الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ (الأنفال: ٢٤) فالدين في كلّ مفاهيمه، وفي كلّ تشريعاته هو دعوة للحياة، أن تتدين في الآفاق الرحبة للدين والرؤى المنفتحة حيث يريدك الله أن تنطلق وتتحرك وتحيا وتحلم، ولهذا فمن يحاول أن يقحم الدين في الموت، هو إنسان لا يتمثّل الدين في معناه، حتى الموت. في المفهوم الديني. قَبِلَه مَنْ قَبِلَه ورفضَه مَنْ رفضه. ليس موتاً بمعنى العدم، هو حشر بين حياتين: حياة تمارس المسؤولية، وحياة تحاول أن تحصل على نتائج المسؤولية. إنَّ الموت لن يمرّ في الظلام، إنَّه يبقى بين نورين، ولذلك فإنّ الفكر الديني سواء أكان إسلامياً

أو مسيحياً، يحاول أن يجعل الموت للأحياء أشبه بالحلم... الحلم الذي لا يعيش كالأحلام التي نمارسها في حياتنا، ولكنّه يصعد ويصعد حتى يقترب ليجلس إلى قرب الله.

وهكذا ـ أيها الأحبة ـ إنّ الطب أيضاً وُجد لخدمة الإنسان، والذي يتعلّم الطب ويُدرّسه ويمارسه، إنّما يفعل ذلك لأجل الإنسان ابتعاداً به عن الألم، وابتعاداً به عن الموت الذي لم يأتِ وقته. ولهذا فإنَّ معنى أن يكون الذين يعيشون الدين متديّنين أن يتأنسنوا ويتعمّق الإنسان في داخل وعيهم حتى لا يمارسوا الدين نصوصاً جامدة باردة، وإنما ينطلق الدين بحسب تمثّلهم له ليكون شيئاً في الروح، بحيث يشعر الإنسان وهو يتديّن، بل هُو يرتفع إلى الله ويعيش مع الله، أنَّه يلتصق بالإنسان لأنّ «**الخلق كلّهم عيال الله وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله**» أن تعيش مع الله، هو أن تعيش مع الإنسان وأن تتحسّس إنسانيته، وأن تتحمّل مسؤوليتك أمام الإنسان..

الأخلاق: أن تعيش إنسانيتك في إنسانية الآخر

وعلى ضوء ذلك، ننفتح على الأخلاق.. وهي ربما تخضع لكثير من البحث الفلسفي أو الاجتماعي، وربما تتنوّع، فهناك أخلاق سياسية، وهناك أخلاق اقتصادية واجتماعية. ونحن في هذا المقام نتحدّث عن الأخلاق الطبيّة، ولكننا قبل

ذلك نقول: إنَّ الأخلاق وحدة، والتفاصيل إنّما هي في الخطوط، والأخلاق تختصرها كلمة واحدة، هي أن تعيش إنسانيتك في إنسانية الإنسان الآخر، وأن يكون الآخرُ عقلَك الذي تفكّر فيه كما يكون عقلك عقله، وأن يكون الآخر قلبك، شعورَك، وحركة طاقتك، ولعلّ أفضل كلمة تختصر المسألة الأخلاقيّة هي الحديث النبوي الشريف، الذي يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها**»، فلاحظوا هذا الربط بين الإيمان وبين محبة الآخر بحيث تكون الآخرَ، وبذلك تنعدم هذه الفواصل بينك وبين الآخر..

«**عاملِ الناس بما تحب أن يعاملوك به**»، وقد ورد في وصيّة أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «**يا بني إجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها**». إنّنا نلاحظ في سياق وصيّة الإمام، الغيرية «غيرك»، أحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك وأكره له ما تكره لها، فعند ذلك لن تكون الأنانية شيئاً يفصل إنساناً عن إنسان. حتى حبّ الذّات وهي نوع من الأنانية النفسيّة التي تدفع الإنسان إلى أن ينمّي ذاته لأنه يحبها ويُطلقها ويحرّكها لأنه يحبّها وكما يقولون: إن حبّ الذات هو أساس الطموح، وأساس النموّ والحركة فحتى حبّ الذات، ومعناه أن تحبّ ذاتك أن تحب الآخر في ذاتك، أن تفكّر أنّك لن

تعيش وحدك، بل أنت والآخر، فالكون كلّه وبحسب كلّ حركته في الوجود، وفي كلّ الموجودات ليس فيه معادلة أنا لا الآخر. بل «أنا والآخر» فالآخر وجودٌ أمامك، وجودٌ في حياتك، ولهذا فمسألة أن لا تقرّ وتعترف بالآخر مسألة لا وجودية وتخالف الواقع.. وأن تعترف بالآخر أن لا تلغيه، لأنك لا تملك أن تلغيه من الوجود الإنساني، لأنَّه لا يمكن لإنسان أن يلغي إنساناً، قد يحجِّم إنسانٌ إنساناً. قد يحاصر فكره، ولكنّه لا يمكنه أن يلغيه إنْ لم يلغِ نفسه، فإذا لم تلغِ أنت نفسك فلن يلغيك أحد.

وإذا كان من حقّك أن تختلف مع الآخر، فلماذا لا يكون من حقّ الآخر أن يختلف معك، هذه وحشية وليست إنسانية، والمؤسف أنَّنا أدخلنا هذه الوحشيّة في القومية، وفي الوطنية وفي كثير مما يُراد له أن يجمع الناس ليؤنسنَهُم، فحاولنا أن نفصله عن كلّ معنى الإنسانية.

الطب: رسالة لا مهنة

وعلى ضوء ذلك يتضح بأنَّه لا نستطيع فصل أخلاق في جانب معين عن أخلاق في جانب آخر، لأنَّه ربّما كان المناخ يختلف، أو كانت المفردات تختلف بين فريق وآخر، ولكن الأخلاق واحدة، وحدة لا تتجزأ ولا تنفصم ولا تزول..

ولهذا فالطبيب لا بُدّ وأن ينقذ المريض في أية حالة من

حالاته، وأن يبذل كلَّ علمه وخبرته لمساعدته، وأن يُجهد نفسه. ويذوب في مريضه، لأنَّ ذلك يلخّص معنى مسؤوليته في الحياة، فأنت كطبيب ليس لك أن تفكر أنك صاحب مهنة، بل عليك أن تفكّر أنك صاحب رسالة، وأنّ إنسانيتك هي في احتضانك لإنسانيّة هذا الإنسان معك، ﴿مَنْ قتل نَفْساً بغير نَفْس أو فساد في الأرض فكأنما قتلَ الناس جميعاً ومَنْ أحياها فكأنّما أحيا النّاسَ جميعاً﴾ (المائدة: ٣٢).

إنّ الإنسان الطبيب ومن خلال امتلاكه لبعض آليات حماية الحياة، مسؤولٌ عن الحياة من خلال مسؤوليته عن إنسانية الآخر، كما هو مسؤول عن هذه الإنسانيّة في ذاته ومن خلال مسؤوليّته عن إنسانيّة نفسه، ولذلك أن تكون طبيباً في دائرة الأخلاق يعني أن تعيش الطب رسالة. ورسالية الطب، تقتضي ألاّ تعيش الطبّ في صلب الحياة مهنة مادية، لأنَّك عندما تكون صاحب رسالة فإنَّ الرسالة تندفع إلى كلّ حركتك الطبية..

سرّ المريض أمانة

ومن هنا ننطلق لنتحدث عن سرّ المريض، فإنّ مسألة أن يَطّلع الطبيب على سرّ مريضه وسرّ مرضه، وسرّ الظروف المحيطة بمرضه والسلبيّات الذاتيّة والاجتماعيّة التي تحيط بمريضه، تعني في ميزان الأخلاق الإنسانية سرّيَّةَ الأمانة،

وأنَّ سرّ المريض أمانة. وفي الأخلاق: ومنها الأخلاق الدينيّة «أنَّ السرّ أمانة» حيث ليس لأحد أن يُذيع لأيّ إنسان وفي أية مسألة، سرّاً يكتمه إلا أن يكون ذِكراً له بخير كما يقول بعض الحديث الشريف.

ثم إنَّ مسألة حفظ السرّ ليست متصلة بالطب وحسب، ففي السياسة هناك أسرار لا بدّ لك من أن تكتمها، وهكذا في الإجتماع وفي الحياة العائلية، وفي كلّ ما يتحرك فيه الإنسان، لأنَّ إفشاء السرّ قد يقتل إنساناً أكثر مما تقتله الأسلحة. إنَّ هذا الخطّ الأخلاقيّ لا يتصل بالطبّ، ولكنّها مسألة كلّ علم يتصل بالإنسان، ويحترم خصوصياته بعيداً عن ذهنيّة المهنة التي تتجمّد أمام الربح ولا شيء إلا الربح.

ثم عندما ننطلق لنتحدّث في واقع التفاصيل فإنَّنا نقول: هل يمكن للطبيب أن يعطي للمريض سرّ مرضه، ـ وقد يكون خطيراً ويتعلّق بحياته وتتوقف عليه ـ أو لا يجوز له أن يعطيه سرّ مرضه؟ إذا كان إعطاء السرّ مما يزيد في مرض المريض فلا يجوز لك أخلاقيّاً ودينيّاً أن تعطيه هذا السرّ، بل لا بدّ لك أن تحتفظ به لنفسك، وإذا أمكن أن تستعين بمن حوله من أجل تطوير معالجتك له من خلالهم فلا مانع من إفشائه لهم.

تجارة الدواء

أيها الأحبة.. هناك تفاصيل مثيرة تعرفونها في مسألة تجارة الدواء تتعلّق بالطرفين الأساسيين وهما الطبيب والصيدلي، أي مَنْ يبيعون الدواء ومَنْ يصفونه، حيث نواجه مشكلة أخلاقية في هذا المجال قد يتجاوزها البعض بفعل المهنة في الدواء فيعطون ويصفون للمريض أشكالاً عدّة من الدّواء لا يحتاج إلاّ واحداً منها، لأنَّ هناك تعاقداً بين الطبيب ومَنْ يتاجرون بالدّواء، حيث ينطلق الطبيب ليروّج لهم ما ينتجونه. وهنا يمكن القول ـ ولا أريد الإفاضة في الأمثلة والشواهد فهي كثيرة ـ إنَّ المسألة الأخلاقيّة هي أن تكون في طبّك إنساناً يعيش إنسانيّته في إنسانيّة الآخر، ويحرّك طبّه في المعنى الإنساني أي في خدمة الإنسان الآخر.

كرامة الإنسان الضائعة

ومن النقاط الباقية في الإطار العام، وهي نقطة أثارها الكثيرون بإزاء ما استجد من اكتشافات علميّة، ألا وهي قضية كرامة الإنسان، وقد أكَّد الإسلام هذا المفهوم التكريمي في القرآن الكريم، ﴿ولَقَدْ كرَّمنَا بَني آدم﴾ (الإسراء: ٧٠).

فالكثيرون اليوم يعتبرون أنَّ بعض ما استجد في العالم في مسألة بداية الحياة ونحوها هو مما ينافي كرامة الإنسان، حيث ليس من كرامته أن نُدخله في المصنع لينتج المصنع إنساناً، وليس من كرامته محاولة التدخّل في

الجينات التي يشتمل عليها تكوينه، أو أن نحسّن شيئاً في الداخل، إلى غير ذلك من الأسئلة، ولكننا نقول: أيّ علاقة لهذا في موضوع كرامة الإنسان التي هي سرّ وجوده، فكرامة الإنسان تتجلّى عندما نعطيه حريته، ونفتح قلبه وعقله على ما يحبّ، ونحرّك طاقاته في كلّ مسؤولياته عن نفسه وعن الناس من حوله وعن الحياة كلّها. فأن تكرم الإنسان هو أن لا تحتقر إنسانيته بعد أن يتمثّل إنساناً..

أمّا أنْ تقوم بعمل ما في خطّ إنتاج الإنسان، فهذا مما لا علاقة له بكرامة الإنسان، لأننا نتساءل أيّ فرق من حيث طبيعة التكريم - وبقطع النظر عن الجدل الدائر في بعض المفردات - أيّ فرق بين أن تصنع الإنسان بالطريقة الطبيعية التي يتمّ بها التناسل حيث قد يتحدَّث الناس أنّ هذا لا ينافي كرامة الإنسان، وبين أن تنتجه وأنت لا تفكّر في إنتاجه، ولكن تفكر في إشباع غريزتك فقط حيث قد يرى هذا البعض أنّ ذلك خلاف الكرامة؟!

إنّنا عندما نريد الحديث عن كرامة الإنسان فقد لا يكون هذا من كرامة الإنسان أن تنتجه في مناخ نفسي لا علاقة له بولادته أو حياته، وتمتد المسألة في الكثير مما يلجأ الناس إليه في هذا المجال.

الاستنساخ

وعلى ضوء ذلك نريد الإطلالة على بعض المفردات التي أثارت العالم وضجّت بها حركة الفكر.

المفردة الأولى: الاستنساخ ويذكر الرافضون له عدة حجج:

الحجة الأولى: أنَّه ينافي كرامة الإنسان كما أشرنا، ونحن لا نعتبر أنَّ الاستنساخ يمثّل إساءة لكرامة الإنسان، بقطع النظر عن النتائج السلبيّة الواقعيّة الحركيّة التي يمكن الإشارة إليها.. لأني أسأل: أيّ فرق بين أن تنتج الإنسان من خلال نطفة تلقّح بويضة أو من خلال خلية تزرعها في البويضة بعد أن تفرغها مما في داخلها، إنَّها تتحرّك في خط الآلية التي لا تبتعد عن آليّة حركة الجسد لإنتاج الكائن الحيّ وإن اختلفت في الشكل أو في الموقع.

الحجة الثانية: أنَّ الدين سواء الإسلامي أو المسيحي يقرّر أنَّ الله هو الخالق، والاستنساخ قد يُخيَّل فيه للإنسان أنَّه يتَّخذ لنفسه صفة الخالق، فالله خلق الإنسان من أب وأم، والمستنسِخ يخلق الإنسان من أم وأب أو من أم فقط، فالإنسان أصبح خالقاً.

ولكن حين نناقش المسألة دينياً، فإنَّنا نتساءل: ما معنى الخلق؟ إنَّه ليس إنتاج شكل يخالف الشكل المألوف أو

يشابهه، وإنَّما الخلق أن تنتج قانوناً جديداً لم ينتجه الله، وإنّنا وفي كلّ قراءاتنا ومتابعاتنا في كلّ الاكتشاف والانتاج العلمي، وبقدر ما نملك من إمكانات وإحصاءات وبما هو متوفّر لذلك: رأينا أنّ الإنسان لم يستطع مهما كبر علمه أن يصنع قانوناً ليس موجوداً في نظام الحياة، وإنما استهدى القانون الذي سنّه الله في الكون وفي الإنسان.

فهل المستنسِخون يخلقون؟! وما الذي اكتُشِف على أيديهم؟

لقد قالوا إنَّ الإنسان يُخلق من خلية وهي تتوزّع بين الزوجين: فالنطفة من الرجل وهي تشتمل على ٢٣ من الكروموزومات، والبويضة كذلك، كما تحدّث عن ذلك أهل الإختصاص، وعندما تُلَقّح البويضة بالنطفة يصبح عدد الكرموزومات ٤٦، وهو الرقم الذي يمكن أن ينتج إنسانا، وهنا عندما نأتي للاستنساخ نجد أنَّ ما جاء المستنسخون به هو أنَّهم أخذوا خليّة ناضجة تشتمل على الرقم ٤٦ وفرّغوا البويضة ووضعوا فيها الخلية، وعليه فالمسألة لم تبتعد عما هو مألوف من القانون وإن اختلف الشكل هنا وهناك. لقد استهدى الإنسان قانون الخلق ولم يخلق، فالاستنساخ إذاً لا يصدم العقيدة الدينية ولكنَّه قد يصدم المألوف في ما تعارف عليه الناس.

والحجة الثالثة: أنْ يقول قائلٌ بأنَّ المستنسَخ من أم بلا أب، أو إن أمكن قد يكون من أب بلا أم، وإن سألتهم ما المانع من ذلك؟ فإنهم يحدّثونك عن تخريب الأسرة.

الأسرة واقع درج عليه الإنسان، ولكن لماذا نمنع أن يكون هناك إنتاج ولد خارج دائرة الأسرة؟ مما قد يقع خارج المألوف، إنَّه لا مانع من ذلك شرط أن نصنع له برنامجاً جديداً، كما هو الكثير من الأشياء في حياتنا والتي هي خارج نطاق الاستنساخ ولم تكن موجودة وصنعنا لها قوانين وبرامج ودخلت في السياق العام للإنسان؟ ولماذا نستوحش من كل جديد فيما لا نملك برنامجاً له؟ ولماذا لا نصنع هذا البرنامج على قاعدة المبدأ الإلهي: ﴿**علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾ (العلق: ٥).

الحجة الرابعة: أنَّ الاستنساخ يخلق بعض المشاكل والتعقيدات المتصلة بالأبوة والإرث وحركة الإنسان في الحياة. ولكن هذه أمور لا بدّ من دراستها في حركة الواقع فإذا رأينا أنَّ السلبيات أكثر من الإيجابيات كانت حراماً كما هو مبيّن في الشرع الإسلامي، وأما إذا كانت الإيجابيات أكثر أو متساوية فلا مانع منها، ونحن نقرأ في القرآن الكريم قاعدة عامّة تتلخّص في أنَّ كلَّ ما كان ضررُه أكثر من نفعه فهو حرام، وأنَّ كلّ ما كان نفعه أكبر من ضرره فهو حلالٌ

﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمُهما أكبرُ من نفعهما﴾ (البقرة: ٢١٩) وبناء لهذا أفتينا بتحريم التدخين لأنَّ هناك شبه إجماع في العالم أنَّ ضرره أكثر من نفعه، وكلّ ما كان ضرره أكثر من نفعه فهو حرام.

إذاً المسألة بهذا الشكل مما لا يتصل بكرامة الإنسان، ولا بالعقيدة الدينية وإنما ترتبط وتتصل بالممارسات الواقعيّة في سلبيّاتها وإيجابيّاتها، فلننتظر حتى تتحرّك التجربة في المسألة العامة وتتحوّل إلى ظاهرة ولندرس عندها هذه الظاهرة لتحديد إيجابياتها من سلبياتها.

إنّ علينا ـ أيها الأحبة ـ ألا نرجم العلم بالحجارة عندما ينتج لنا شيئاً خلاف المألوف، ولقد جرّب الناس ورأوا أنَّ الكثيرين ممن رجموا النتاج العلمي بالحجارة أنهم انهزموا أمام العلم، لأنَّ قضية العلم ليست قضية حالة إنسانية طارئة، بل هي قضية وجودنا، لأنَّ مسألة أن تنتج علماً هي مسألة إكتشافك لسرّ من أسرار الوجود، ولهذا قلنا وأكّدنا أنَّ الإيمان يمرّ بطريق العلم وليس كما يتصوّرون أنَّ الإيمان يمرّ بطريق التخلّف والجهل، بحيث تكون المعادلة أنَّ كل إنسان يعيش الجهل لا بدّ أن يكون مؤمناً وكلّ إنسان يملك علماً فلا بدّ أن يكون كافراً فهذا خطأ!

ورحم الله المخترع اللبناني المعروف حسن كامل الصبّاح

حيث قال: «إنّ العلوم الطبيعية إذا عُبّتْ عبّاً قرّبت من الله وإذا رُشفت رَشْفَاً أبعدت عن الله»، لأنَّ الإنسان إذا اختزن العلم اختزن أسرار الله في الكون، وحين يختزن أسرار الله في الكون يتبدّى الله له في عظمته وفي جلاله. وانطلاقاً مما سبق لا بدّ أن نعطي الاستنساخ - ولو على الأقل - فرصة فكريّة حتى نستطيع متابعة حركته وقضاياه.

والحجة الخامسة: أنَّ البعض يقولون إنّنا عندما نستنسخ فإنَّ العالم كلَّه سيكون شكلاً واحداً، وسوف تتحرّك هذه الظاهرة لخلق الكثير من السلبيات. ولكنَّ المسألة لم تصل إلى هذا الحد، وعلينا أن نطمئن من هذه الجهة، لأن تكاليف إنتاج الإنسان الطبيعي هي أسهل بمئات المرّات من استنساخ شخص واحد. فالتفكير بالمشكلة في هذا الجانب لا يدعو إلى القلق، فالإنسان الآن يعمل من خلال كلِّ دوائر الإحصائيات السكانيّة في العالم على تحديد النسل وتنظيم النسل، باعتبار أنَّ هذا الإنتاج غير المدروس قد خلق مشكلة اجتماعية في العالم.

الاستفادة من أعضاء المستنسخ

ثم إنَّه يتمّ الحديث عن استعمال أعضاء الإنسان المستنسَخ، ولقد أكّدنا أنَّ الحديث تارة يكون عن الإنسان الجنين الذي يتكوّن إنساناً وإن في بداياته، وطوراً يكون عن

الجنين حين يكون نطفة أو علقة أو مضغة وقبل أن يتكوّن إنساناً.

فحين يكون الجنين جنيناً في شكله وتركيبته، فلا فرق بينه وبين إنسان آخر، حيث لا يجوز لنا أن نتصرّف في جسده بما يقتله أو بما يضرّه ضرراً بالغاً، فهو إنسان سواء أجاء بالشكل الطبيعي أو بشكل آخر، ولكن من الممكن جداً. ولا أملك خبرة واسعة في هذا المجال - أن نستفيد منه قبل أن يبلغ هذه المرحلة.

وأيضاً إن كان التصرّف في الجينات لتحسين وضع معيّن أو تجميد وضع وراثي ما، فليس هناك مانع ديني. حسب رؤيتنا - يمنع من ذلك.

وقد يعترض البعض على ذلك أنَّ هذا تصرّفٌ في خلق الله، فالله خلقه على هذه الشاكلة، فكيف يتصرّف الإنسان به؟ إنّ هذا المنطق يخضع للنقد! لأنَّ الله خلق الانسان بهذا الشكل من خلال القوانين والظروف البيئيّة والظروف الوراثيّة والغذائيّة وغيرها فلا مانع من التدخّل لمنع بعض التأثيرات السلبية التي تأتي من البيئة أو الوارثة أو غيرهما، فليست المسألة أنّ الله يخلق هذا الإنسان كما خلق آدم. ولهذا لا مانع لدينا في إجراء عمليات التجميل، لأنه ربّما يُخلَق إنسانٌ مشوّهاً في عضوٍ من أعضائه بفعل قوانين الوراثة أو

غيرها، فلا مانع أن نقوم من حيث المبدأ بأية عمليّة تجميليّة في هذا المجال.. وأما ما استدلّ به بعض العلماء من قوله تعالى حكاية عن لسان الشيطان: ﴿ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّه﴾ (النساء: ١١٩)، فالمراد بخلق الله هنا والذي يأمر الشيطان بتغييره ليس هو الإنسان ولا الكون بأجمعه، بل يراد به فطرة الله، حيث فطر الإنسان على التوحيد لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فطْرَةَ اللّه التي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبْديلَ لِخَلْق اللّه ذلكَ الدِّينُ القيِّم﴾ (الروم: ٣٠)، وتغيير التوحيد هو عمل الشيطان وشغله الشاغل، فليس شغل الشيطان وعمله عملاً عضوياً بالنسبة للإنسان أو الكون، وإنما عمله هو عمل روحي في ما يقوم به من الوسوسة، فهو الذي يوسوس في صدور الناس، ويزيّنُ للإنسان القبيحَ ويقبّحُ له الحسنَ، ويحاول حرفه عن الصراط المستقيم.

الإجهاض

وأمّا المفردة الثانية: فهي الإجهاض، والإجهاض في النظرة الإسلامية محرّم إبتداءً من المرحلة التي تحصل فيها عملية التلقيح للبويضة وتلتصق بجدار الرحم حيث تبدأ البويضة رحلة الحياة، ففي هذه الحالة لا يجوز الإجهاض، باعتبار احترام الحياة منذ بدايتها، ونقصد بالحياة، الحياة في ظروفها الطبيعية الموجودة في داخل جسم الأم.

نعم فيما يتعلق بالإجهاض هناك حالتان وقعتا موضعاً للجدل الفقهي:

الأولى: إذا كان الحمل يضرّ المرأة ضرراً بالغاً، وليس الضرر العادي الذي تفرضه طبيعة الحمل، بل هو الضرر فوق العادة، أو كان الحمل يشكّل حرجاً شديداً لا تتمكّن الأم من تحمّله، ففي هذه الحالة يبيح بعض فقهائنا ومنهم أستاذنا السيد أبو القاسم الخوئي - ونحن نوافقه اجتهادياً على ذلك - الإجهاض على أساس القاعدة القرآنية الفقهية ﴿ما جعَلَ عَلَيْكُم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، لأنَّ بقاء الحمل يؤدّي إلى حرج ومشقة وجهد فوق العادة في جسم المرأة. والله لم يجعل في أحكامه حكماً ضررياً أو حرجيّاً، ولذلك فيجوز إسقاط الجنين حينئذٍ. لكن ما دام أنَّه لا يزال في ما يسمّى في الفقه في مرحلة قبل نفخ الروح، أي قبل أن تتكوّن في هذا الجنين إنسانيّته، لأنَّ الضرر البالغ لا يجوِّز الاسقاط بعد نفخ الروح.

الثانية: أن يتحوّل الحمل إلى خطر على حياة الأم، فهنا يجيز بعض الفقهاء ومنهم - أيضاً - السيد الخوئي، أن تقوم الأم بمهمة الدفاع عن نفسها - ولو بإسقاط الجنين - ونحن نوافقه على ذلك، لأنَّ المسألة لا تكون مسألة قتل ابتدائي، وإنَّما تكون مسألة دفاع عن النفس، وهي كما يمثّله البعض

بأنَّه لو كنت نائماً وجاء شخص لا وعي له، وألقى بثقله عليك ممّا شكّل تهديداً لحياتك ولا تستطيع أن تخلّص نفسك إلا بأن تدفعه بشكل ربما أدّى إلى موته، ففي هذه الحال يجوز ذلك من باب الدفاع عن النفس.

وهناك من يقول من الفقهاء إنَّه ينتظر أمر الله في ذلك، فهو لا يعطي رأياً في هذا ولا في ذلك.

تشوُّه الجنين لا يبرر إسقاطه

وقد يُبتلى الكثيرون بمشكلة تشوّه الجنين، وفي النظرة الإسلاميّة العامة أنَّه لا يجوز الإسقاط في هذه الحالة، وإلاّ جاز لنا قتل المشوّهين، فلماذا نقيم المشافي والمصحّات للمشوهين إن كان المبدأ واحداً؟ إذا جاز لك قتل المشوّه وهو جنين فلماذا لا يجوز قتل المشوّه وهو إنسان؟ فالإثنان يمثّلان مشكلة في نظر النّاس.. ثم لماذا لا نفكّر أنَّ الطبَ قد يتقدّم، وقد يساهم بطريقة وبأخرى في معالجة هذا التشوّه..

طفل الأنبوب

وأما المفردة الثالثة: والمتعلّقة بالإنجاب الطبّي أي طفل الأنبوب، حيث نقول من حيث المبدأ لا مانع من التلقيح بهذه الطريقة، ولكن قد يقال إنّنا نحتاج أن نستغني عن بعض النُطَف الملقّحة في طفل الأنبوب، ففي هذه الحالة تقول النظريّة الفقهيّة إنَّه إنّما يحرم الإجهاض عندما تلتصق

البويضة الملقّحة في جدار الرحم، أمّا إن كانت في الخارج فلا يحرم، وهذه مسألة لا تزال محلّ الجدل والنقاش.

الموت الرحيم

والمفردة الرابعة: وأمّا مفردة نهاية الحياة، وتوقيف العلاج في حالات الأمراض المستعصية فهنا نقول: إنّ توقيف العلاج معناه أن تترك الإنسان يموت دون أن تنقذه، وهو ما يصطدم بنظرية احترام حياة الإنسان، فأنت عليك أن تترك الحياة تدافع عن نفسها أو أن تنهي ذاتها، فلا يجوز لك أن تنهي حياة إنسان، سواء أكنت في موقع المريض أو الطبيب.. والنقطة التي أريد إثارتها فيما يتعلّق بالأخلاقيّات الطبيّة هي ما يتصل بالموت الرحيم حيث: أنّه في النظرية الأخلاقية الإسلامية وأظنّ عدم ابتعاد المسيحية بنظريتها عنها، أنّ الدّين بمعنى إرادة الله من خلال المفاهيم التي نطّلع عليها في الثقافة الدينية، هو أنّه في بعض معانيه كما يحمي الإنسان من الآخر فإنه يحمي الإنسان من نفسه، فكما لا يجوز قتل إنسان آخر فإنه لا يجوز للإنسان قتل نفسه. فالمبدأ واحد وهو احترام الحياة في كلا الحالين، وهذا الأمر لا يأتي بالنسبة للميت أو للنبات أو للجماد، فعندما نقول إنه: يحرم قتل إنسان فلأنه يحرم قتل الحياة، فأي فرق عندها بين الحياة في الآخر وبين الحياة في ذاتي؟ إنّني لا أملك هذه

الحياة التي هي هبةٌ من الله، وأمانة مودَعة عندي، فكما أنّ الله لم يسلطك على حياة إنسان آخر فإنّه لم يسلطك على إنهاء حياتك، بل إنَّ الدين في هذا المجال يحرّم عليك أن تضرَّ نفسك، لأنك ترتكب خطيئة إذا عرّضت نفسك لأيّ ضرر كان، صحيّ أو غيره، وهذا ما أوضحناه في فتوى حرمة التدخين الذي يجعل الجسم مهيّأً للإصابة بالسرطان ولو بعد سنوات، ومن هنا انطلقت فتوى التحريم لما يصيب الجسم من ضرر.

فكما ينظر الإسلام لإنسانيتك، ينظر لإنسانية الإنسان الآخر، ويجري عليك ما يجري عليه، وقد ورد في بعض أدعية أئمة أهل البيت (ع) وهو الإمام زين العابدين(ع) القائل في خطابه الإنسانيّ: «**ولا أظلمنَّ وأنت مطيقٌ للدفع عني، ولا أُظلمنَّ وأنت القادر على القبض مني**» فإذا رأيتني ـ يا رب ـ وأنا أريد ظلم إنسان آخر فاستعمل قوّتك في أن تكسر يدي وتمنعها من ذلك.

أيها الأحبة: إنّ الأخلاق لا تتجزّأ، إنّ أخلاقياتك ليست فقط فيما تمارسه مع الآخر، بل هي في ما تمارسه أيضاً مع نفسك، وهذه هي مسألة التوازن، ولذلك فأنت عندما تكفُّ عن معالجة المريض المُبتلى بالمرض المستعصي فأنت تقتله سلبيّاً، ولا فرق بين القتل السلبيّ والقتل الإيجابيّ، لأنّه يجب عليك الحفاظ على

حياة الإنسان الآخر حفاظك على حياة نفسك..

ومن خلال هذا المبدأ نرفض ما يسمّى بالقتل الرحيم! وأنا لا أفهم كيف يكون الموت رحيماً؟! إنّ الموت يبقى من خلال طبيعته الماديّة قسوة لأنه يسلبك الحياة، يجعلك حجراً وجماداً، يصادر كلَّ حياتك ووجودك، وهذا ما يندرج هنا، فليس من حقّك قتل نفسك لأنَّ الانتحار خطيئة ﴿ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ (النساء: ٢٩)، ﴿ولا تُلْقوا بأيْديكُم إلى التَّهْلُكة﴾ (البقرة: ١٩٥)، ولا يجوز للمريض أن يطلب من الطبيب حقنة تسبّب له الموت، وليس من حقّ الطبيب الاستجابة لذلك لأنَّه ليس صاحب السلطة على حياة مريضه.

ثم حين يتحدّث الكثيرون عن الموت الرحيم، فإنّهم يتحدّثون عن مسألة الآلام الجسديّة التي تصيب هذا الإنسان الذي يطلب الموت، وإذا قرّرنا ذلك وقنّناه. كما سمعنا. عن تقنين الموت الرحيم في هولندا، فأيُّ فرق بين الآلام النفسيّة والآلام الجسديّة،؟ وقد جرّب بعض الناس ذلك حين كانت تحاصرهم الآلام النفسيّة، وكان يُخيّل لهم أنَّ الموت هو أفضل من الحياة، وهو ما نستوحيه من قول ذاك الشاعر العربي:

ألا موتٌ يُبَاعُ فاشتريه فهذا العيشُ مما لا خيرَ فيه

وإذا فتحنا باب الموت الرحيم، فعلينا إذاً أن نشرّعه للفتاة

التي تُصاب بصدمة عاطفية صعبة، أو الشاب الذي يشعر بالقلق والاضطراب، وأنَّ حياته لا قيمة لها، فهل نقنّن لمن يُصَاب بصدمة عاطفية أو اقتصادية في البورصة أو في الأزمات التجاريّة والاقتصاديّة موتاً رحيماً؟ وعندها كم من اللبنانيين يحتاجون إلى موت رحيم بسبب الأزمة الاقتصادية التي نعيشها. إنَّنا عندما نؤسّس المبدأ فلا يمكننا أن نحصره في دائرة، لأنَّ المبدأ واحد، فقصّة الإنسان الذي يتألم جسديّاً هي نفسها قصة الألم بأجمعه، ونحن نعرف أنَّ الأزمات الروحيّة والنفسيّة قد تكون أكثر من الأزمات الجسديّة. فكيف نُشرِّع ونقنّن ما يُهلك حياةَ الإنسان ويُفقده قيمة وجوده؟!

ثم، لماذا نحاصر الطبَّ أن يقف عاجزاً أمام الشفاء؟ أليس من المحتمل أنه بعد ساعة من موت إنسان ما أن يكتشف الطبّ علاجاً لهذا المرض؟ حيث إنّ كلَّ المكتشَفَات الطبيّة كانت في لحظة مما يحتاجه الكثيرون من الناس! إذن فلنُبقِ الحياة تدافع عن نفسها، وإذا كان الإنسان يعيش الألم فهناك القِيَمُ الروحيّة التي يمكن للإنسان أن يدعم فيها الجانب الجسدي ويخفّف من ألمه.

التبرع بالأعضاء

وأما في ما يتعلّق بمفردة وهب الأعضاء ونقلها: فمن

حيث المبدأ لا مانع من الوصية بالأعضاء، ونقلها من الميت للحي، وهذا ممَّا يُعتبر - لا سيما عندما ينقذ حياة إنسان آخر - قيمة أخلاقية كبرى وهي الإيثار، وأمّا في حال الحياة فهناك من الأعضاء ما لا يُشكِّل خطراً على حياة الإنسان، وإذا كان نقل عضو ما بحسب الواقع الطبيّ مما لا يثير الخطر على المتبرّع فلا مانع من ذلك، ولكنَّ التحفُّظ عندنا ناشئ من جهة الاتجار بالأعضاء الإنسانية، وربما نلاحظ أنَّ بعض الفقهاء وفي بعض الحالات المستعصية والصعبة والتي تبلغ حدّاً فوق العادة يجيزون للإنسان التبرّع بعضو حيويّ كالعين لإنسان آخر، وهذه تفاصيل تُدرس وفق حيثيّاتها وأسسها وظروفها..

العلم: كرامة الإنسان

أيها الأحبة..

إنَّنا نقول إنّ العلم هو كرامة الله للإنسان من خلال عقله، ونحن في المفهوم الإسلامي الحنيف نعتقد - وكما ورد في مأثورنا - أنَّ العقل هو أساس إنسانيّة الإنسان، ففي الحديث القدسي الوارد على نحو التمثيل في هذا المقام: «**إنَّ الله لمّا خلقَ العقل قال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أعزّ عليّ منك، إياك آمر وإياك أنهى، وبك أثيب وبك أعاقب**».

هو العقل مركز إنسانيّة الإنسان، وهناك تعبير في بعض الكلمات المأثورة أنّ «**العقل رسول من داخل والرسول عقل من خارج**»، فالرسول في رسالته عقلٌ يتحرّك ويتحدّث، والعقل في الداخل رسول إلى الإنسان ليوجّهه إلى الخير لا إلى الشر، وتبقى كرامة الإنسان هي كرامته في كلّ حركته المنطلقة في رحاب وآفاق الحياة، في إغناء الحياة والإنسان.. وتبقى كرامة الإنسان في تحطيم كلّ الحواجز بين الإنسان والإنسان الآخر، لأن الله وزّع على الناس عقولهم وخبراتهم، وقد قال تعالى: ﴿**يا أَيُّها النَّاس إنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَر وأُنْثَى وجَعَلْناكُم شُعُوباً وقَبَائلَ . . .**﴾ (الحجرات: ١٣)، وهذا ممّا لا يُلغي خصوصية الإنسان العائليّة أو الوطنيّة أو القوميّة والعرقيّة، ولكن أن تكون الحياة الإنسانية دوائر تنفتح كلّ دائرة على الدائرة الأوسع، حتى تصل إلى الدائرة الإنسانية العامة ﴿**لتَعارَفُوا**﴾ (الحجرات: ١٣) ليعطي كلُّ واحد تجربته وخصوصيّته وإبداعه وطاقته وحركته للآخرين.

أيها الأحبة!

لنرتفع إلى الله لنغني إنسانيتنا، حيث العقل يُبدع، وحيث الروح تسمو، وحيث الإنسان ينطلق ليحبَّ الله في الإنسان، وليحبَّ الإنسان في الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسئلة المحاضرة

*** هل يجوز تشريح الجثث في الجامعات لدراسة الأعضاء؟**

- المبدأ أنَّ للإنسان حرمة وهو ميت كحرمته وهو حي، ولكن إذا توقّفت الدراسة على تطوّر الطب في هذا المجال، جاز ذلك في هذه الحالة.

*** هل يمكن تحديد التوقيت لعملية نفخ الروح؟**

- الواقع أنَّ هناك نصوصاً تتحدّث على الأربعة أشهر، ولكن هذه مسألة لا بدّ وأن تُدرس من خلال طبيعة الاكتشاف العلمي لهذه المسألة.

*** إذا كانت الأسرة ليست قانوناً من قوانين الحياة، فلماذا التشديد على مؤسسة الزواج؟**

- من قال إن الأسرة ليست قانوناً من قوانين الحياة؟! ولكني قلت إنَّ الاستنساخ لا يلغي الأسرة، فالأسرة هي أول

خلية اجتماعية ينمو فيها الإنسان اجتماعيّاً وعاطفيّاً وروحيّاً. ولكنَّ مسألة الاستنساخ كالفتاة التي تعيش عزباء والشاب الأعزب، فهذه استثناءات ولكن القاعدة هي قاعدة الزواج والأسرة. ولنفرض أنَّ المستنسَخ ليس جزءاً من الأسرة ولكن حين يتزوج مستقبلاً ينشىء أسرة. والاستنساخ وإن كانت إيجابياته أكثر من سلبياته، فهو لا يلغي الأسرة، لأنَّه ليس ضروريّاً أن تكون الأسرة في البداية والنهاية. فهذا أسرته الأولى هي المجتمع، وبعد ذلك يمكن أن يكون له أسرته الخاصة.

*** من الملاحظ أنّ المساكنة في الغرب قد تحوّلت إلى نوع من زواج مع قوانين شفهيّة وأحياناً خطية ما قولكم؟**

- بداية فلنحدّد المفهوم، إذا كان إثنان يعيشان مع بعضهما البعض ويرغبان ببعضهما، يعيشان حياة الزوج مع زوجه، في التزام شخصي واقعي ذاتي فلماذا يمتنعان عن الالتزام العقدي؟! فالحياة - على سبيل الفرض - بين الصديقين هي حياة تنطلق من المشاعر والأحاسيس والرَغبات وهي قابلة للتغيير، ولا تربط إنساناً بإنسان آخر. لأنَّ ما يربط الناس - أفراداً وجماعات - ببعضهم البعض هو الالتزامات العقدية. لهذا اعتقد أنّ أمثال هؤلاء المذكورين في السؤال يهربون من أنفسهم، وهم لا يعيشون روحيّة الزوجيّة وإن كانوا

يعيشون واقعيّتها بطريق غير شرعي، ونحن نلاحظ من خلال الدراسات الكثيرة والقراءات المتعددة أنَّ الغرب يعاني الكثير من المشاكل التي أودت بالأسرة من خلال الحرية المطلقة للغريزة، لأنَّ هذه الحرية تخلق مشاكل وعقداً نفسيّة في واقع الغرب. ونحن نخشى نتيجة عقدة «الخواجه» لدينا أن نستورد هذه العقد الكثيرة بدل استيراد علم الغرب.

*** اعتبرت الكنيسة اللواط خطيئة ولكنها دعت إلى الرحمة والتّسامح مع اللواطيين، فما هو رأي الإسلام؟**

ـ طبعاً اللواط خطيئة من الكبائر، وباعتبار أنَّ الكنيسة، لا تملك تشريعاً فهي تنطلق من خلال مفاهيم الرحمة والتسامح للعفو عن هؤلاء كما ترى، وإننا نرى إمكانية إبعاد الإنسان عن اللواط والزنا إذا ما فتحنا قلبه وعقله وأخذنا بيده ليعود إنساناً طبيعياً، ولكنّ المسألة تحوّلت إلى ظاهرة تهدّد المجتمع، بحيث يستغني الرجال بالرجال، والنساء بالنساء وبذلك نفقد موضوع الزوجيّة وموضوع الأسرة فحينها لا بد من قانون ردعي لحلّ هذه المشكلة. ثم هناك ملاحظة حول هذا هذا الموضوع، حيث شرّع الزواج المثلي وهي أنّنا نسأل المتزوجين مثليّاً لماذا تريدون تبنّي الأولاد؟ فإنَّنا نقرأ عنهم ذلك، فهذا يعني أنّهم غير جادين في زواجهم؟ ومعناه أنَّ فراغ الأسرة لا زال يعيش معهم، فالولد

لا يُولد من علاقة مثليّة، لا علاقة مثلية ذكرية ولا علاقة مثلية أنثوية؟ إنَّهم يختزنون في داخل عقلهم الباطن أنَّه لا بدَّ أن يكون هناك علاقة بين ذكر وأنثى حتى يكون هناك ولد. وغاية الأمر أنّهم يأخذون ولداً ناتجاً من علاقة بين ذكر وأنثى، ويتبنّونه، وهذا نوع من اللعب على المشاعر والأفكار والعبث بالحياة. حين تريد أن تنشىء كياناً لنفسك فعليك دراسته من جميع الجهات، لا أن تدرس جانباً منه وتبقى الجوانب الأخرى بدون دراسة، إننا ـ ومع الأسف ـ في تبعيّتنا لكلّ ما يَرِدُ من الخارج نأخذ بالموضوع دون دراسته.

إنَّ أية حركة نتحرَّكها أو أي تقليد أو عادة نأخذها أو ثوب نلبسه، إن كان الإنسان يحترم ذاته فيه فعليه طرح السؤال على نفسه: لماذا؟ لماذا أتحرّك وأقلّد وأعتاد وألبس؟ هل لأنَّ الآخر يفعل ذلك، إن معنى ذلك أنني لست ذاتي، ومعنى ذلك أنَّنا لا نعيش في الآخر إنسانيّاً، بل نعيش فيه تقليديّاً بما يُسقط إنسانيتنا، وبما يجعلنا بعيدين عن تأصيل إنسانيّتنا في ما نختاره.

لذا، أقول دائماً على الإنسان أن يجلس مع نفسه، ويدرسها، أن يدرس أفكاره وعواطفه ومشاعره، لأنها مما لم نختره، بل فرضته البيئة علينا، لشغلنا عن أنفسنا.. وغربتنا عن ذواتنا التي لم نردها وقد ورد في الحديث:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»، إننا عندما نختار أنفسنا نستطيع التحرّك من خلال إرادتنا، ولكننا نتحرّك من خلال الآخرين.

*** بعض البلدان تسمح بالاستنساخ لغايات علميّة، ولكن لو حدث هذا الأمر في لبنان فما هو الرأي؟**

ـ لقد تحدّثت في ذلك، وبتفصيلات كثيرة حول الأسباب العلمية، وكيفية ممارسة العلم في الاستنساخ! حتى استنساخ الأعضاء إذا توفّر واقعيّاً وبطريقة علميّة أيضاً، ولكن أن نستنسخ إنساناً ونقطع أعضاءه فهذا مما لا يجيزه دين أو شرع.

*** كطبيب من يعطيني الحقّ أنّ أقرّر أنَّ معرفة المريض بالحقيقة قد تؤذيه، وربما أنَّ الخبر قد يغيّر حياته ويدفعه للتوبة فما قولكم؟**

ـ هذه قضايا نتحدّث فيها من حيث المبدأ، ولكن كيف نكتشف أنَّ هذا الخبر يغيّر حياته سلباً أو إيجاباً، فهذا مما قد نحتاج فيه لعالم نفسي، أو لأهله، لدراسة الظروف ونحوها، ولدراسة ما يؤدّي بالإنسان لفهم الآخر.

*** إذا كان الانتحار خطيئة من مبدأ احترام الحياة فهل العملية الاستشهادية في سبيل هدف نبيل هي خطيئة أيضاً؟**

- العملية الاستشهاديّة ليست انتحاراً، إنّها دخول في الحرب، فما الفرق بين الجندي الداخل في المعركة الشرعيّة ليقتل الآخر وهو يعلم مسبقاً أنه مقتول أيضاً، لأنَّ المعركة تحتاج لذلك، وبين الجندي الذي يقتحم المعركة ويفجّر نفسه، ويقتل ذاته في سبيل معركته الشرعية؟ إنَّ المعركة قد تفترض وجود الغام مزروعة لا يمكن تفجيرها وتحقيق الانتصار إلاّ بتفجير الأشخاص لأنفسهم عليها، فهنا لا بدّ من الموازنة بين الأهم والمهم، فهل المهمّ هو الانسان الجندي في معركة شرعيّة أو أنّ الأهم هو الانتصار. فإذا توقّف الانتصار أو ربح المعركة أو دفع العدوّ في القضايا الكبرى التي تمس حياة الناس على أن يضحّي الجندي بنفسه، فإنّ هذا الأمر جائزٌ لا مشكلة فيه. لأنَّ اللّه تعالى لم يحدّد لنا آلية المعركة فنحن نقرأ مثلاً في كتاب اللّه: ﴿إنَّ اللّه اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنّة يُقاتلون في سبيل اللّه فيَقتلون ويُقتَلون﴾ (التوبة: ١١١)، أية آليةَ؟ لا تحديد، كلّ ما تحتاجه المعركة، شرط شرعيّة المعركة.

ومن هنا استنكرنا ما حدث في أميركا، وقلنا إنّ أميركا لا تُحارَب بهذا الشكل، لأنَّه لا حرب حارّة في هذا الموقع، هناك حالة استنكار ومواجهة للسياسة الأميركية، ولقد قلت إنّني لا أستطيع الإقتناع مئة بالمئة أنّ الذين اتُّهموا هم من قاموا بهذا العمل، لأنَّ هذا الأمر يحتاج لتقنيّة عالية، ولا أدري من

أين جاءتهم الإمكانات، ولكني بالمقابل قلت لو أنّ أميركا دفعت مئات المليارات على أن تحصل من المكاسب السياسية والأمنية والاستراتيجية ما حصلت عليه، ما كانت تحصل على مثل ما حصلت ووصلت إليه، فما حدث خدمها خدمة العمر.

*** أجازت بعض قوانين الدول الغربية تزويج الرجل بالرجل، وقد بادر الأطباء عندهم في التفكير عن كيفية الإنجاب عند الرجل، حتى قرأنا بعض الأبحاث في ما يريد إيصالهم لنتيجة ما، ما رأيكم؟**

- أقول، يمكنهم تحصيل الإنجاب، دون هذا، إنّ تركيب الإنسان أساساً في هذه المسألة كذكر وأنثى وحتى الحيوان معدّ أن يكون عنده بين ذكر وأنثى، وأمّا هذه الحالات فتعالج من خلال معالجة الذهنية لهؤلاء البشر، فالفكرة عندهم أنّ حرية الإنسان أن يشتهي ما يريد؟ فإذا اشتهى إنسان ما أشياء تضر المجتمع فهل نتركه يمارس ما يشتهي؟ وهنا أتساءل في هذا المقام: لماذا تحارب أميركا وأوروبا والعالم بأسره المخدّرات؟ يقيناً، إنّ المخدّرات تجعل الإنسان يعيش في عالم وردي غارق بالأحلام، فلماذا نحرمه ذلك؟!!! إذا كان المبدأ أنه لماذا نحرم الإنسان الحرية الفرديّة المطلقة، فإنّ هذا ممّا قد يوصلنا إلى طرح المبدأ القائل: تنتهي حريّتك عند بدء حريّة الآخرين!؟

لقد شرّعت الشرائع أنّ حرية الإنسان تنتهي عند حرية غيره، فإذا ما أردنا أن نعيش التفكير الغربي فما الذي يمنعني أن أقتل الآخر تحت عنوان ولافتة الحرية الفردية والمزاج الشخصي، وحتى في التفكير الماديّ ما معنى أموت ليحيا الآخرون؟ والمعلوم عند الماديين أنّه ليس هناك حياة أخرى ودار أخرى؟ إنّنا نستعير المفاهيم الدينية دون احترام الدين في الأمور الأخرى المماثلة.

*** ما الفرق بين الشخص الذي ينتحر والمجاهد الذي يقتل نفسه؟**

- إنّ المجاهد حين يُقتل بدافع وطني أو ديني، فإنّه ينطلق من القضية الكبرى، وقيمتها رضا الله، فالمتديّن يسعى لرضا الله، وأما غيره فإنّه ينطلق من إخلاصه لأمته ومجتمعه ووطنه، إذاً هنا قضية تصغر عندها الحياة، وأمّا هناك فالألم هو المهيمن، الألم أو المشكلة أو الأزمة التي يحاول المنتحر الفرار منها، وهناك فرق بين موتك لقضاياك الذاتية، وبين شهادتك لتعيش قضايا الإنسان والحياة.

*** كيف لنا أن نعتبر أنّ إيجابيات الاستنساخ هي أكثر من سلبيّاته وكيف لنا أن نمنع من أن يستغل الاستنساخ ويُستخدم ضدّ الإنسان؟**

- لقد اخترع نوبل المتفجرات ظنّاً منه بأنّها لخير الإنسان

ثم عاد وندم على ذلك، وهكذا فإنَّ كلَّ الاختراعات العلمية هكذا، نحن يجب أن ندرس القضية في إطارها الموضوعي، وإلا ما من شيء إلا ويستخدم استخداماً سيّئاً، مثلاً الذرّة استخدمت في القنبلة الذرية وغيرها، ولكن الذرّة أفادت الإنسان في القضايا السلميّة ولم تُستعمل سوى في اليابان، وهناك معادلة أنَّ عالمنا هو عالم المحدود. حيث لا يوجد مطلق في الحياة، فأنت لا تربح شيئاً إلا أن تخسر شيئاً معه، عالمنا عالم المحدود، لذلك لا يوجد لدينا مئة بالمئة إيجاب ومئة بالمئة سلب، فالمطلق هو اللّه، أما الإنسان فهو محدود.

*** إذا كان الطب رسالة والطبيب هو حامل هذه الرسالة، فكيف للطبيب إذا كان يستخدم هذه الرسالة كوسيلة للتجارة وسلب الناس أموالهم مما يؤدّي إلى الإنحراف عن الهدف الأساسي لهذه الرسالة؟**

ـ مثل السياسة، أليست السياسة رسالة لتيسير أمور الناس وإدارة شؤونهم؟ ولكننا نرى الفساد الإداري والسياسي مستشرياً بين السياسيين.

علينا معالجة المشاكل بمقدار ما نستطيع، أنا دائماً أقول علينا أن لا نقتل الكافر ولكن نقتل كفره ولا نقتل المجرم ولكن نقتل جريمته إلا إذا وصل إلى حد أنَّ الجريمة لا يمكن قتلها إلا بقتله.

*** نرى أنَّ غياب سياسة تنظيم النسل تحرم الأطفال من أشياء كثيرة أولها: العلم والدواء ما رأيكم في ذلك؟**

ـ في الواقع أعتقد أنَّ المسألة في قضية تنظيم النسل أو تكثير النسل، المسألة هي قلة التخطيط، الوزارة التي كان يحتاجها لبنان وهي أكثر الوزارات حاجة للبنان هي وزارة التصميم والتخطيط، وقد ألغاها اللبنانيون لأنهم لا يطيقون التخطيط، هذه هي المشكلة نحن لا نعتبر كثرة الناس هي القيمة ولا قلتهم قيمة، ولا هذا ضد القيمة ولا ذاك.

الآن في الغرب يتحدثون عن تكثير النسل لا عن تنظيم النسل لأنَّه أصبح عندهم ضمور في عدد السكان، لذلك هم أصبحوا يستوردون العمال ويستوردون شعوباً ويعطونها الجنسيات.

هذه القضايا لا تُدرَس دراسة عشوائية، كلّ بلد له ظروفه وكل عائلة لها ظروفها في هذا المجال، لذلك علينا أن ندرس المسألة دراسة في حجم الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

في الغرب ومن جملة الأسباب التي أوجبت ضمور الأسرة أو عدم الزواج، إنما هي مسألة الحرية الشخصية التي وصلت إلى حد العبث واللهو عند الأب والأم والأولاد، إنَّ الإنسان يجب أن يعيش بينما القيمة هي التي تؤصل إنسانية الإنسان، فهي التي تبني الحياة، وأمَّا إذا تحركنا على اللهو والعبث هذا يعني أنه لا توجد حياة.

حول المحاضرة

بقلم: البروفسور رولان طنب

إن مختلف حقول العلم الانساني مرتبطة الارتباط الوثيق بالتساؤل الأخلاقي، إلاّ أنَّ حقل الطب وعلوم الأحياء هو المجال الأعمق الذي يبدو فيه هذا التساؤل جذرياً وواجباً، إذ أنّ هذا التساؤل يشمل مسائل الحياة والموت والعلاج والألم. وبالتالي ما هو الموقف الذي علينا أن نقفه أمام تقدّم العلوم؟ فالتفكير الاخلاقي أصبح ضرورة لأنّه يؤسّس للاختيار البشري تجاه الامكانات الجديدة وهو يذكّر ما هي الرهانات والأولويات. وفي طبيعة الإنسان الذي يواجه الشك أن يتساءل دوماً وإن يُصغي إلى الآخرين.

ومن دواعي اعتزازنا أن تكون كلية الطب في جامعة القديس يوسف سبّاقة في هذا المضمار إذ بادرت إلى استحداث الشهادة الجامعية في الأخلاقيات الطبية إيماناً منها بضرورة توعية المعنيّين لأهميّة دراسة تحدّياتها وإشكاليّاتها.

ونحن نعتزّ أيضاً بتعدديّة النسيج اللبناني الواحد والعيش المشترك والتآخي والتبادلية في الاحترام والتقدير. ولذا فقد ارتأينا أن تكون فاتحة المحاضرات في تلك الشهادة مخصّصة للنظرة الإسلامية الدينية والحضارية، إيماناً منّا بأولوية التعارف قبل الحوار وضرورة الاحترام لخير تعايش، ومَنْ أجدر من سماحة العلامة المرجع آية اللّه العظمى السيد محمد حسين فضل اللّه أن يخاطبنا وينوّرنا ويحاورنا، وهو الذي عوّدنا على الكلام الحرّ، والرأي الجريء والإبداع المتفوّق والنظرة المستقبلية الرائدة؟ فوظفنا قديم صداقاتنا وجديدها، وهي موضع الفخر والاعتزاز، وأخصّ بالذكر الشقيق والرفيق الدكتور السيّد رائد شرف الدين والأستاذ الحاج جعفر عقيل اللذيْن سرعان ما رتّبا اللقاء بين سماحة السيد ورئيس جامعتنا الأب سليم عبو اليسوعي. فتمّت الدعوة وازدَدنا حماساً وحميّة يوماً بعد يوم، حتى القيت المحاضرة يوم الجمعة الموافق في أول آذار ٢٠٠٢، فامتلأ المدرج الرئيسي في حرم كلية الطب وضاق بالحشود حتى أن العشرات من طلاّب العلم والمعرفة حُرِموا من دخول القاعة. وكان هذا أسفنا الوحيد لأنَّ هذا اللقاء التاريخي في كليتنا تعدَّى كل أمنياتنا وأضحى حدثاً مميزاً في حياتنا الجامعية والاجتماعية.

أصغى الحاضرون بحرارة وورع، وطوراً صفّقوا بحماس وتارة تعالى ضحكهم لأنَّ السيد العلامة برع في استقطاب العقول والقلوب فكأنّه كان يخاطبهم فرداً فرداً ويسائل ضميرهم وخيالهم حتى تكاثرت الأسئلة ولم يسمح الوقت للإجابة إلا لبعض العشرات منها!

لن أردّد هنا كلَّ ما قاله سماحة السيد عن حركة الكون ودوريْ الطب والدين ومشاكل بداية الحياة ونهايتها، والانجاب الاصطناعي والاستنساخ والقتل الرحيم وما إلى ذلك من مواضيع يشملها هذا الكتيّب. فليُشكر المبادرون إلى نشره. ولم يُفاجيء السيّد إلاّ مَنْ يجهله بجرأة انفتاحه وشجاعة آرائه تجاه الحداثة وتطوّر العلوم.

لكنّني أودّ أن أنوّه بالكلمات الأولى في تلك المحاضرة القيّمة التي حسبتها طوراً إنجيلية وتارة تقدّمية، ولقد استهلّ السيّد العلاّمة بالقول «إنَّ اللّه في المفهوم الرحب للأديان وخصوصاً المسيحية والإسلام يتحرّك معنا، فاللّه الرحمن في الدنيا والآخرة، هو محبّة. وهو في الداخل من العقل لا يصادره، وهو خالقه، بل ليخطَّ له خطوط الحريّة فينفتح عليها لأنَّ العقل لا يمكن أن يعطي دون حريّة، فلا يمكنك تقنين العقل، بل توفير مناخ المسؤولية له ليبقى للإنسان من أجل أن يخطّط للإنسان إنسانيّته».

واستطرد قائلاً إنَّ «في هذا اللقاء بين اللّه والإنسان لا نعيش الله في التجريد» وأضاف أنه في الإسلام لا شيء من الألوهية في الإنسان لكنَّ فيه شيئاً من روحه وروحانيته وإنَّ الإنسان وحدة لا ازدواجية فيه «فالمادة تتروحن والروح تتحرّك في قلب المادّة».

لا داعي هنا للتذكير بدور العلاّمة المرجعيّ الكبير الذي تجاوز الاطار المذهبي للاشعاع في العالم العربي والاسلامي. وفي لبنان بالذات، لم يكف سماحة السيد عن العطاء منذ عودته من النجف سنة ١٩٦٦، فقد افتقدته الساحة الإسلامية في العراق. وهذا ما عبّر عنه السيد الشهيد محمّد باقر الصدر حين قال «كل من خرج من النجف خسر النجف، إلاّ السيد فضل اللّه، فعندما خرج من النجف خسرته النجف». ولقد أولى الاهتمام بالدراسة الدينية الحوزوية وكذلك بالاطّلاع على الثقافة العصرية وشؤون الوطن والمجتمع حتى نعته الشيخ عبد اللّه العلايلي بلقب «حجّة اللّه البالغة». ولا داعي لتعداد مؤسسات العطاء التي أنشأها السيد وأخصّ بالذكر جمعية المبرّات الخيرية ومكتب الخدمات الاجتماعية ناهيك عن الحوزات العلميّة ودُور العبادة والمراكز الثقافيّة، والمؤلفات الفقهيّة العديدة المتعدّدة وعشرات الكتب الفكرية والفلسفية ودواوين الشعر.

فلقد شرّفنا حضوره وأسعدنا خطابه وزادتنا حكمته إيماناً باللّه الواحد الرحمن الرحيم الذي أهدانا العقل وحثّنا على الإبداع، «فالعلم هو كرامة اللّه للإنسان من خلال عقله الذي يشكّل إنسانيّة الإنسان، وتبقى كرامة الإنسان هي كرامته في حركة الحياة وإغنائها وتحطيم كلّ الحواجز بين القلوب والعقول».

وبكوني المنسّق لشهادة الأخلاقيّات الطبيّة امتزجَ امتناني العميق بفرحة عارمة لتلبية دعوتنا ومساهمته الفقهية الجريئة والنيّرة في برنامجنا، وازداد اعتزازي وفخري بلبناني الحضاري المتعدّد المتنوّع وبرجالاته العظيمة.

أطال اللّه عمر سماحة العلاّمة المرجع وبارك وجوده في حرم جامعتنا وأكثر من عطائه وسخائه.

الطبيب البروفوسور رولان طنب
منسّق الشهادة الجامعية في الأخلاقيات الطبيّة
كلية الطب
جامعة القديس يوسف ـ بيروت

الفهرس

مقدمة ٥

نص المحاضرة ٧

اسئلة المحاضرة ٣٥

حول المحاضرة / بقلم: البروفسور رولان طنب ٤٧

دار الملاك
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
حارة حريك ـ قرب كلية الهندسة
هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ فاكس: ٠١/٤٥٠٧٦٩